أعمال عبد المؤمن بن علي في بلاد افريقية بين عامي 554هـ -555هـ من خلال المصادر التاريخية والأثرية

The works of Abd al-Mumin bin Ali in African countries between the years 554 AH - 555 AH through historical and archaeological sources

1- مزراق محمد*، جامعة تامنغست (الجزائر)
مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست
mohamedmezreg@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 06/11/ 2023 تاريخ القبول: 12/30/ 2023 تاريخ النشر: 12/31/ 2023

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على جوانب هامة من الأعمال التي قام بها عبد المؤمن بن علي في بلاد افريقية أثناء عمليات الفتح بغية الوقوف على أهم المنجزات الحضارية والمعمارية التي ساهمت في تأسيس ونشأة دولة الموحدين وإرساء قواعدها .

وخلصت الدراسة إلى إن تأسيس الدول وإرساء قواعدها يقتضي الاهتمام بمختلف الجوانب السياسية والدينية والاقتصادية والعسكرية. وهو ما يستوجب من القائد المؤسس إن يكون ذو حكمة وبصيرة ودراية

كلمات مفتاحية: افريقية.، المهدية.، الفراسخ.، برقة.، عبد المؤمن.

Abstract This research paper aims to shed light on important aspects of the works carried out by Abd al-Mumin bin Ali in African countries during the conquest operations in order to identify the most important cultural and architectural achievements that contributed to the establishment and emergence of the Almohad state and the establishment of its foundations .

The study concluded that the establishment of states and the establishment of their foundations requires attention to the various political, religious, economic and military aspects. This requires the founding leader to be wise, insightful and knowledgeable

Keywords: African; Mahdia; Leagues; Baraka; Abdul Momen.

*- المؤلف المرسل

مقدمة

عرفت بلاد المغرب الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن السادس هجري والثاني عشر ميلادي مرحلة حاسمة تمثلت في قيام دولة الموحدين الناشئة بقيادة عبد المؤمن بن علي، وهي تتمثل في إتمام عمليات الفتح، وما تزامن معها من أهم الأعمال و الانجازات التي قام بها خلال عامي 554 و555هـ، وكان ذلك من اجل تحديد دولة الموحدين وإرساء قواعدها ومؤسساتها الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، وكانت هذه الأعمال تتمثل في مسح الأراضي المغربية الواقعة تحت سلطان الدولة، بالإضافة إلى استرجاع مدينة المهدية وتأسيس مدن جديدة وتعميرها بالسكان وبالنشاطات الحرفية والمعيشية المختلفة.

ومن هنا جاءت إشكالية البحث تتمحور على النحو التالي: ما هي الأعمال و الانجازات التي قام بها عبد المؤمن بن علي خلال عامي 554 و555هـ؟ كن هو عبد المؤمن بن علي صاحب هذه الأعمال والانجازات؟ وماهي الدوافع التي جعلته يقوم بهذه الأعمال الهامة، وما الهدف من تأسيسه للمدن وفرض جباية الخراج؟ وكيف كانت أوضاع المغرب الإسلامي قبل سنة 554هـ، ؟

1. أوضاع المغرب الإسلامي قبل سنة 554هـ:

لقد كان لاستيلاء النورمان على المهدية والسواحل الشرقية لإفريقية من أيدي أمراء بني زيري الصنهاجيين، وفرار أميرهم الحسن بن علي بن تميم إلى مدينة الجزائر طالبا النجدة من الموحدين[1]، ولتمرد عرب الأثبج ورياح و زغبة في المغرب الأوسط[2]، أن أدى ذلك إلى فتح جهة جديدة شكلت خطرا محدقا على جهود عبد المؤمن لاستكمال تأسيس دولته الناشئة، وذلك ما جعل الخليفة عبد المؤمن يراجع خططه السياسية والحربية والاجتماعية والاقتصادية لمواجهة هذا الخطر الحاذق بالمغرب الأوسط وافريقية.

[1] - حسن مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته**،مج02،ج02،العصر الحديث،ط01، بيروت1992 ،ص97.

[2] - سالم عبد العزيز،**المغرب الكبير العصر الإسلامي**،ج2،دار النهضة العربية، بيروت،1971،ص794.

وقد كان من أعمال عبد المؤمن في الميدان العسكري قيامه بتنظيم الجيش لمواجهة الفرنجة من الرومان، وقد بلغ عدد جيشه في إحدى المعارك ستة مائة ألف من المشاة فضلا عن الفرسان، وقد أحدث نظاما وخطة للجيش لمواجهة الأعداء ويعد أحدث نظام في دولة الموحدين، فقد قسم الجيش إلى أربعة أقسام مربعة، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير حوالي مسيرة يوم، وتلدا المسيرة بعد صلاة الصبح حتى الظهر، ويشرع في سيره بعد دق ثلاثة قرعات من طبل ضخم مصنوع من الخشب الرنان يسمع من مسير يوم، حيث يكون سير كل قبيلة تحت علمها الخاص ثم بتوقف السير بعد قطع مسافة استعدادا للسير في اليوم الموالي[1].

وعلى الصعيد البحري جهز أسطولا متنوع الأشكال مجهز بـ 400 ألف قطعة من الطراد والمسطحات والشوالي والحراريق والزوارق والمواكب[2].

ونشير في هذا المجال أن الخليفة عبد المؤمن استطاع بواسطة هذا الأسطول الكبير أن يحاصر قلعة بني حماد وبجاية عام 547هـ [3] وفتحهما.

وفي عام 553هـ/1158م توجه الخليفة إلى افريقية على رأس جيش جرار لكسر شوكة المتمردين من الأعراب وردعهم ، وكذلك لاسترجاع مدينة المهدية التي وقعت مرة ثانية تحت حكم النورمان، فلما وصل تونس في عام 554هـ حاصرها وفتحها عنوة، وبعد هذا النصر المحقق جعل كافة التخوم الجنوبية التي تنعم بخيراتها من الخصب والرخاء والعطاء الفلاحي[4] تحت سيطرته.

---

[1] - محمود السيد، **تاريخ دولة المرابطين والموحدين**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1999 ، ص52.

[2] - .....الزركشي ، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تح/م ماضوي، المكتبة العتيقة،ط 02، تونس،1966 ، ص11.

[3] - صالح بن قربة، **عبد المؤمن بن علي**، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1985،ص48.

[4] - محمود السيد، مرجع سابق،ص122.

2. التعريف بعبد المؤمن بن علي[1]: (487- 558هـ = 1094-1163م):

هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي : أمير المؤمنين، مؤسس دولة "الموحدين " المؤمنية في المغرب وإفريقية وتونس. ولد في آخر 487هـ بمدينة تاجرت نواحي ندرومة قرب تلمسان،نشأ وتعلم فيها ، أبوه صانع فخار، انتقل إلى قرية ملالة ببجاية حيث اتصل بالمهدي بن تومرت، وهو واحد من أبرز القادة والساسة في دولة الموحدين ، وأحد تلامذة المهدي العشرة الذين اختارهم ليكونوا وزراءه، تمكن عبد المؤمن بدهائه وبراعته الحربية أن يستخلص السلطان لنفسه حيث نادى بنفسه خليفة للموحدين بعد وفاة ابن تومرت في 524هـ ،. بويع البيعة العامة بجامع تنملل ودعي "أميرا للمؤمنين"[2] سنة 526هـ، ونهض للغزو والفتوح وقاتل بني تاشفين، وبعد أن تغلب على دولة المرابطين، دخل مراكش سنة 541هـ ، وجاءته بيعة بعض أهل الأندلس، وكان عاقلا حازما شجاعا موفقا،كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهتمام بشؤون الدين،محبا للغزو والفتوح، خضع له المغربان الأقصى والأوسط، والأندلس،حيث استولى على اشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر والمهدية وطرابلس الغرب وسائر بلاد افريقية، وأنشأ الأساطيل وضرب الخراج على قبائل المغرب، وهو أول من فعل ذلك هناك. نظم دولته سياسيا وعسكريا واجتماعيا وضرب عملة له ذات شكل مربع، توفي بمدينة سلا عام 558هـ ونقل إلى تنملل فدفن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت ، خلف من بعده أبناء وعدة أبنية وآثار.

---

[1] - شمس الدين ابن العباس، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، تحقيق احسان عباس ج03،،دار ثقافة ، بيروت، لبنان، ص237.

- وينظر: عبد الواحد المراكشي ، **المعجب في تلخيص اخبار المغرب**، تحقيق خليل عمران، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1998، ص199.

- للاطلاع اكثر ينظر: خير الدين الزركلي ، **الأعلام**، تح/الدهان عبد السلام،دار العلم لبنان،2002، ص170.

[2] - تذكر بعض المصادر التاريخية كان يطلق على عبد المؤمن لقب " أمير المسلمين". ينظر :احمد بن محمد المقري،**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**،تح.احسان عباس،مج 04،دار صادر ، بيروت 1388هـ = 1968م،ص 377.

3. مسح بلاد أفريقية[1] وفرض الخراج.

لاشك من أن الظروف والعوامل الجديدة من امتداد الدولة وسعة وخصوبة أراضيها، فضلا عن التهديدات الخارجية، بات لزاما على الخليفة عبد المؤمن أن يستمر في تقوية أركان دولته وتأمينها اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واجتماعيا من أجل الحفاظ على كيانها، ولا يكون ذلك إلّا إذا باشر الإصلاح في الميدان الاقتصادي باعتباره الركيزة الأساسية التي تحقق الأمن الغذائي الذي لا يمكن الاستغناء عليه.

وكان العامل الأساسي والاستراتيجي لتحقيق ذلك هو الشروع في عملية المسح من سنة 554هـ، على كامل بلاد المغرب الإسلامي،انطلاقا من القسم الشرقي من إقليم افريقية من حدود برقة[2] حتى إلى بلاد النول من السوس الأقصى[3] في جهة الغرب على الحدود في المحيط الأطلسي ، ويلي ذلك فرض الخراج على من تجب عليه، وقد أشارت لنا المصادر التاريخية بشكل جليّ هذه السياسة التي رسا

---

[1] - بلاد أفريقية : يطلق على البلاد الواقعة في شمال إفريقيا غربي مصر، تمتد من برقة شرقا إلى الضفة الخضراء غربا ومن البحر الأبيض شمالا إلى الرمال التي أول بلاد السودان جنوبا، فتحت في عهد الخليفة عثمان بن عفان عام 25هـ/645م ، استولى الفرنجة عليها عام 534هـ وبقيت تحت سلطانهم إلى أن حررها عبد المؤمن بن علي عام 555هـ.

- ينظر: الحسن بن محمد الوزان ، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 01 ، دار الغرب الإسلامي ، ط02، بيروت ، 1983، ص27 ، 28.

[2] - **برقة**: بفتح أوله والقاف، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وافريقية، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن، ويطلق هذا الاسم على الأرض ذات الأحجار المختلفة الألوان، قال عنها القرماني إقليم بين الإسكندرية وافريقية ، وقال عنها ابن الفقيه هي اسم صقع بين الإسكندرية وافريقية طولها ثلاثة وستون درجة وعرضها ثلاثة وثلاثون درجة، يحيط بها البربر من كل جانب، افتتحها عمر بن العاص صلحا، وبينها وبين القيروان مائتان وخمسة عشرة فرسخا .

- ينظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، المجلد 01،دار صادر، بيروت 1397هـ - 1977م، ص388.

وينظر: سعيد بن يوسف احمد القرماني ، **أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ**، تح/احمد حطيط واحمد فهمي،ج03،دار القلم، ص337.

[3] - السوس الأقصى: هو إقليم كبير بالمغرب الأقصى ذو مدن عظيمة وقرى كثيرة وعمارة متقاربة، وليس في المغرب بلد أكثر منه خيرا ولا أرفه منه. – ينظر: القرماني، مصدر سابق،ص 382.

عليها اختيار عبد المؤمن بن علي وشرع في تنفيذها حيث قالت " وفي هذه السنة - أي أربع وخمسين - أمر عبد المؤمن أمير المؤمنين[1] بتكسير بلاد أفريقية والمغرب، وكسّر بلاد افريقية من برقة إلى بلاد النول[2] من السوس الأقصى بالفراسخ[3] والأميال[1] طولا وعرضا، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال

---

[1] - أمير المؤمنين: تذكر الكتب التاريخية أن أول من تلقب به هو الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وظل العمل به شائعا في تاريخ الدول الإسلامية ، ويذكر المؤرخون أن عبد المؤمن بن علي يعتبر أول من اتخذه في بلاد المغرب الإسلامي أيام دولة الموحدين ، استولى على لقب أمير المؤمنين ليؤكد أنه ندّ لخليفة المؤمنين في بغداد، لأنّ طموحه لم يكن ليقف عند حدود بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، وكان يهدف من اتخاذه هذا اللقب هو الانفصال بالغرب الإسلامي انفصالا نهائيا عن المشرق الإسلامي وذلك ما تحقق وأكده في حكمه على هذه البلاد.

- ينظر: عبد الكريم غلاب ، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي**، ج02، دار الغرب الإسلامي،ط01، بيروت،2005،ص201.

[1] - شمس الدين ابن العباس ، مصدر سابق، ص237.

- وينظر: المراكشي، المعجب مصدر سابق ، ص199.

[2] بلاد النول: ويقصد بها المناطق الواقعة جنوب بلاد المغرب، وهي حاضرة لمطه من القبائل البربرية تقع غربي تينزيرت، وقال عنها الإدريسي أنها تقع في الجهة المقابلة للمحيط الأطلسي على مسافة ثلاثة ايام، وهي على نهر يأتيها من جهة الشرق. ينظر: الشريف الادريسي ، **القارة الافريقية وجزيرة الأندلس**، تح/اسماعيل العربي،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1983، ص127.

[3] - الفراسخ: وحدة للطول يراد بها في الأصل المسافة التي اذا قطعها المسافر قعد واستراح، وكان العرب والمسلمون يتعاملون بها في قياسات المسافات الطويلة، وحدد الجغرافيون الفرسخ بما يعادل 12000 ذراع شرعية أو 03 اميال، والذراع 24 اصبعا والأصبع 06 حبات شعير.

- ينظر: محمد فاخوري، **موسوعة وحدات القياس العربية الإسلامية**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2002،ص 144.

والشعارى والأنهار والسبخات والطرقات والحزوز، وما بقي قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق فهو أول من احدث ذلك بالمغرب"[2].

ولذلك كان أمْر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقية قرارا مدروسا لا يمكن تأجيله أو اتخاذه نظرا لما سيجنيه من عملية المسح وفرض جباية الخراج على من تجب عليهم من تحقيق فوائد تعود لصالح استمرار الدولة وصلاح السياسة وضمان امن الرعية من الخوف والجوع.

وكانت عملية المسح تهدف إلى معرفة حالة السكان وأوضاعهم وطبيعة أراضيهم وذلك بعد جمع المعلومات المهمة عن سكان القبائل في المدن والبوادي والجبال[3]،والتي من خلالها يمكن حينئذ تقدير الحصة أو النسبة التي تدفعها كل قبيلة من الخراج من نتاج الغلة والأموال المتمثلة في الفضة المضروبة أو مادة خام.

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن الميدان الفلاحة شهد تحسنا كبيرا حينما تحسنت الظروف المنية تحت لواء الموحدين، حيث انتعشت الفلاحة والزراعة كسابق عهدها وانعكس ذبك على الجاني الاقتصادي، حيث راجت التجارة وانتعشت الصنائع، وبلغت أوج ازدهارها الاقتصادي ، وهي حالة لم يرى أهل المغرب أياما مثلها قط[4].

وبدا جلياً أن فرض الخراج في عام 554هـ كان فرصة هامة بالنسبة للدولة عموما وعبد المؤمن خصوصا،حيث أنها تكون قد أمنت خزائن الدولة المهددة بالإفلاس بسبب تزايد الإنفاق من احتياج

---

[1] - الأميال: وحدة للطول يراد بها في الأصل المسافة بين منارين وكان العرب والمسلمون يتعاملون بها في قياسات المسافات الطويلة ، وحدد الجغرافيون الميل ما يعادل 4000 ذراع والذراع 40 اصبعا والأصبع 06 شعيرات متلاصقات.

- ينظر: محمد فاخوري ، نفسه،ص 158.

[2] - علي بن أبي زرع الفاسي،**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس** ، دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط 1972، ص 199.

والناصري أبو العباس احمد ، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح.جعفر الناصري، ج02،دار الكتاب، الدار البيضاء 1954، ص 125.

[3] - محمود السيد، مرجع سابق،ص 53.

[4] - ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح. احسان عباس، بيروت 1967،ص226.

الصرف على الجيش المقدر بالآلاف، ومن احتياج الصرف على باقي مؤسسات المجتمع التي يسهر عليها الخليفة شخصيا يرعاها ويوجهها.

ونلمس دور الخراج في تدعيم الجيش من عمل آخر قام به عبد المؤمن تمثل في توجيهه قسط من الخراج للمرابطين في حصار المهدية سنة 554هـ الذي طال ، كما يذكر الزركشي[1]، مدة ستة أشهر من جهة البحر والبر إلى أن سقطت باستسلام النورمانديين.

فإذن هذا الحصار الطويل الأمد بكل ما يتطلبه من تمويل لا يمكن أ يستغني من الجراية المخصصة له من خزينة الدولة التي كان من أهم مواردها هو الخراج .

وهكذا إذن كان للخراج دور هام إلى جنب الجيش المدعم بالعدة والعدد، وتمثل هذا الدور في تحرير المهدية وكامل افريقية والزاب من سيطرة الفرنجة المحتلين، وأصبحت كافة أصقاع هذه البلاد و أملاك المسلمين تحت لواء دولة الموحدين الذين دخلوها في عاشوراء عام555هـ وملكها الخليفة عبد المؤمن بعدما اخرج ملكها روجار ومن بقي معه من النصارى، وجلس على عرشها وتوالت عليه التهنئة، وشكر الله، ودخل في طاعته جميع ثوار افريقية خلال هذه السنة[2].

ونلحظ مما سبق إن عائدات الخراج قد ساهمت في تجهيز الجيش ودفع رواتبهم وتأمين غذائهم، وليس مستبعدا أن يسجل العكس إن انعدمت جباية الخراج باعتبارها كما ذكرنا سابقا المصدر المهم والوحيد حينذاك لتأمين خزينة الدولة من الإفلاس.

وهكذا تكون هذه الجباية قد أعطت من جهة أخرى دفعا كبيرا للدولة في تحرير المدن وبناء مدن جديدة و في بسط سلطانها وتثبيته على كامل حدودها التي أصبحت معلومة من خلال عملية المسح، وهي تمتد من برقة شرقا إلى السوس الأقصى غربا.

[1] - الزركشي، تاريخ الدولتين، مصدر سابق،ص11.

[2] - الزركشي، مصدر سابق،ص11.

4. فتح مدينة المهدية[1]

4. 1. التعريف بالمهدية: تقع بالقرب من القيروان على ساحل بحر الروم وداخلة فيه، وقال بطليموس: مدينة برقة هي المهدية طولها اثنان وثلاثون درجة، وعرضها ست وثلاثون درجة، داخلة في الإقليم الرابع[2].

والمهدية جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند، اختار موضعها المهدي سنة 300هـ، وشرع في اختطاطها بتاريخ 05 من ذي القعدة سنة 303هـ، فبناها وجعلها دار مملكته وحصنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت وجعل في كل مصراع من الأبواب مائة قنطار، ولها بابان بأربعة مصاريع لكل باب منها دهليز يسع خمسمائة فارس[3]،

ومن المنشآت العمرانية بالمدينة[4] نشير إلى الصهاريج العظام التي أقامها المهدي وهي المواجل كما يسميها أهل هذه النواحي، والتي بلغت ثلاثمائة وستين موجلا ، وكذلك الماء الجاري الذي جلب إليها من قرية افداس ويصب في صهريج داخل المدينة عند جامعها، وقد أبدع المهدي في هندسة نقل الماء ، حيث يرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب ويصب في محبس يجري منه في تلك القناة.

ومن المنشآت التجارية[5] جعل المهدي للمدينة مرسى كبير وواسع حيث يسع إلى ثلاثين مركبا، وزود طرفي المرسى ببرجان بينهما سلسلة من حديد فإذا أريد إدخال سفينة أرسل حراس البرجين احد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يمدونها كما كانت تحبيسا لها..

---

[1] - المهدية بالفتح ثم السكون، في موضعين : إحداهما بإفريقية اختطها عبيد الله المهدي وهي منسوبة إليه ، وبينها وبين القيروان ستّون ميلا ، والأخرى اختطها عبد المؤمن بن علي قرب سلا. أسسها عبيد الله الفاطمي عام 300هـ/913م على ساحل البحر فوق كتلة صخرية، تحيط بها أسوار عالية ومتينة وأبراج ضخمة ولها أبواب من حديد، استولى الفرنجة عليها بعد مائة وثلاثين عاما من تأسيسها واسترجعها عبد المؤمن الموحدي عام 555هـ.

- ينظر: الحموي، مصدر سابق ص229و230

والحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق ص 85و86.

[2] - ياقوت الحموي، مصدر سابق، ص 230

[3] - ياقوت الحموي، مصدر سابق ، ص 231

[4] - للاطلاع أكثر ينظر: ياقوت الحموي ، نفسه.

[5] - للاطلاع أكثر ينظر: ياقوت الحموي ، نفسه

ولما فرغ من إحكام ذلك ارتحل إليها وأقام بها ثم عمر فيها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن كل طائفة في سوق فنقلو إليها أموالهم[1].

وظلت المهدية على حصانتها إلى إن استعادها الفرنجة 543هـ من قبل الحاكم روجار صاحب صقلية يعد ضعف الحسن بن علي بن يحي وفراره هاربا من قوات الفرنجة، وظلت تحت حكمهم اثنتي عشرة سنة حتى لحق عبد المؤمن بن علي الكومي في سنة 555هـ إلى افريقية[2] واسترجعها إلى سلطانه

4. 2. استرجاع المهدية: تذكر المصادر أن تملك عبد المؤمن بن علي المهدية وفتحها كان يوم عاشوراء من سنة خمس وخمسين 21 يناير سنة 1160م[3]. ويبدو أن عملية الفتح من خلال الإشارات لم تكن سهلة المنال ، بقدر ما شهدت من مجابهات واستعدادات وما كان لها من أسباب وأحداث وما كان لها من غايات وأهداف.

ففي فاتح شوال سنة 553هت/1158م،غادر عبد المؤمن مدينة مراكش ، بعد إن استخلف عليها ابنه الأمير "علي" و"ابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي" وخف إلى تونس بجيوش جرارة وصلتها في شهر صفر سنة 554هـ. ففتحها عنوة وعرض على النصارى واليهود الإسلام أو القتل ثم غادر تونس متجها إلى المهدية لتطهيرها من النصارى، فوصلت جيوشه وأساطيله في شهر رجب سنة 554هت/1149م ولم تكن المدينة يسيرة المنال، فقد كانت محصنة تحصينا طبيعيا يحميها البحر من ثلاث جهات كما أن أسوارها قوية ومتينة[4].

ولما شعر النصارى باقتراب الموحدين من المهدية، اخلوا زويلة ضاحية المهدية الشمالية وأمروا سكانها بدخول المهدية ليحتموا بها، وفي هذه الأثناء استغل عبد المؤمن فرار النصارى فدخل زويلة دون قتال او مساومة ثم اسكن بها أتباعه من الموحدين والعرب والصنهاجيين وباتت المدينة عامرة بهم.

---

[1] - للاطلاع أكثر ينظر: ياقوت الحموي ، نفسه

[2] - للاطلاع أكثر ينظر: ياقوت الحموي ، نفسه

[3] علي بن أبي زرع الفاسي،مصدر سابق ، ص 199

[4] - صالح(بن قربة)، مرجع سابق ص 42

وتشير الدراسات[1] إلى إن عبد المؤمن بعد حصاره بدا ينازل النصارى المحتمين بها وحاول لعدة مرات اقتحامها نظرا لمناعتها الطبيعية والعمرانية، ورغم شدة الحصار كان النصارى يخرجون لمقاتلة الموحدين بين وقت وأخر ، فينالون منهم ويعودون سريعا إلى مدينتهم،

ولما أدرك عبد المؤمن مناعة اقتحام المهدية فأعد عدته بزيادة فرض الحصار على النصارى وجيشه على التحلي بالصبر وجمع العدة من القوت والإمداد بالجند والسلاح حتى يكل النصارى وتضعف شوكتهم بنفاذ قوتهم وكبح الإمداد والمساعدة لهم. وهكذا ظل جيشه صامدا وضاعف الحصار على المهدية وأكثر من نوبات وأوقات ضربها بشتى أنواع الأسلحة والآلات،

قال ابن شداد:" ثم توجه عبد المؤمن إلى المهدية فكان وصوله إليها ضحوة يوم الأربعاء الثاني عشر لرجب ولها حينئذ ولاة ملوك الإفرنج وأبطالهم وقد أخلوا زويلة فنزلها عبد المؤمن بمن يحمله من خواصه ومن أهل الأسواق فعادت مدينة معمورة من يومها، واقبل الناس يقاتلون المهدية مع الإمام فلا يؤثر ذلك فيها لحصانتها وضيق مأخذ القتال منها لأن البحر دائر بأكثر ها، وكان الفرنجة يخرجون منها فينهبون أطراف المعسكر، فأمر عبد المؤمن ببناء سور بين عسكره والمدينة يمنعهم من الخروج، وركب عبد المؤمن في قطعة من قطعه ومعه الحسن الذي اخرج منها وطاف بها من البحر، فهاله امرها وعلم أنها لا تفتح بقتال وليس لها إلا مواصلة الحصار وتوقع الأقدار،فتتمادى حصاره لهاا ستة أشهر..."[2]

ويصف لنا المراكشي[3] جانب آخر من صمود جيش عبد المؤمن ومحاصرته للمهدية وضربها بشتى أنواع الأسلحة المتوفرة لدى الجيش، وبتضييق الخناق فقال:" ونازلها وتلاحق الأسطول إليه بالآلات والمجانيق والعدد وغيرها وحضر الفعلة لها، فأمر لها بقتال الكفرة ورماهم بالحجارة نهارا وليلا، وأرسل عليهم من سحائب السهام وابلا، وأرسل عليهم المنايا من كل جانب، ودام حصاره لهذه المدينة المنيعة في المعاقل الرفيعة حتى يسر الله فتحها...." .

[1] - صالح(بن قربة)، نفسه.

[2] - أبو محمد عبد الله التجاني ، **رحلة التجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية،تونس، 1377هـ=1958م، ص 347م348.

[3] - المراكشي، البيان، مصدر سابق،ص62

وفي ظروف هذا الحصار أدار خطة أخرى تقوي شوكته وتضعف النصارى حيث أمر ابنه عبد الله محاصرة مدينة قابس والمدن المجاورة لها فاستولى عليها من بني كامل ورياح كما استولى على قفصة من بني الورد والأربس من بني فتانة العرب، وفي مدة قصيرة فتح طرابلس وبلاد الجريد كلها[1].

وكان لهذه الخطة الحربية الجديدة وقع كبير على النصارى المحصنين في المهدية حيث بات إيمانهم بالنصر على عبد المؤمن صعبا رغم علمهم بأن الملك وليم قد أرسل أسطولا بحريا ضخما لإنقاذ المهدية ومن بداخلها، غير أن دهاء وفطنة عبد المؤمن كانت في الاستعداد والترصد لقطع أي إمداد عسكر ي بري كان آو بحري، فكان معاونه عبد الله بن ميمون قائد الأسطول المغربي قد قضى على الإمداد الذي أرسله إلى إنقاذ المهدية.

وبعدما انقطعت كل السبل من المأمن والمخرج ونفاذ المؤن، لم يكن بوسع النصارى غير الاستسلام ، فنزل في أواخر ذي الحجة عشرة من فرسانهم فوقفوا بين يدي عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن بها في الأنفس والأموال وأن يسمح لهم بالخروج منها إلى بلادهم ، فعرض عليهم الإسلام، فقالوا ما جئنا لهذا وإنما جئنا نطلب فضلك ، فقبل الخليفة مطلبهم وأمر بتجهيز سفن لنقلهم إلى بلادهم، وكان ذلك في فصل الشتاء فأبحرت السفن ولما قربوا إلى صقلية هاج البحر عليهم فهلك أكثرهم[2]...

وهكذا دخل عبد المؤمن إلى المهدية دون قتال بعد حصار واستسلام وأعاد إليها الإسلام يوم عاشوراء من محرم سنة555هـ/1160م[3].

وبعد فتحه للمهدية أقام بها نحو عشرين يوما يرتب أمورها وعين على ولايتها ابو عبد الله محمد بن فرج الكومي يعاونه ملكها السابق الحسن بن علي الصنهاجي[4]. و أمره أن يقتدي برأيه في أفعاله، وأقطع الحسن بها أقطاعا ، وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده[5].

---

[1]- بن قربة ، مرجع سابق ص 43

[2]- التجاني، مصدر سابق،ص349.

[3]- التجاني، نفسه

[4]- بن قربة ، مرجع سابق ص 43

[5] - الناصري، مصدر سابق، ص 124.

وبعد هذا الفتح للمهدية صارت افريقية كلها لعبد المؤمن ، ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له منازع، ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها[1].

وهكذا إذن تمت عملية الفتح ولا شك أنها كانت بمثابة الحلقة التي وضعت حد لحركة وتواجد النصارى في القسم الشرقي من بلاد المغرب الإسلامي، ومنه رسم الحدود الشرقية للدولة الناشئة وبداية للاهتمام بوضع أسس المشاريع العمرانية ذات البعد الاجتماعي والاقتصادي والأمني، وانطلاقة لعملية توسيع الفتح في بلاد الأندلس .

5. بناء المدن الجديدة.

شرع امير المؤمنين بعد تحقيق هذا الانتصار التاريخي في القسم الشرقي من بلاد المغرب الإسلامي بالاهتمام بالمشاريع المعمارية ذات البعد الاجتماعي والأمني في نفس الوقت ، وتمثلت هذه الانجازات في بناء مدينة جبل الفتح وتحصين ، وبناء مدينة البطحاء وتعميرهم بالسكان.

5. 1- بناء مدينة جبل الفتح[2] وتحصينه:

تشير المصادر التاريخية أن بناء مدينة جبل الفتح يعود إلى الفترة التي كان عبد المؤمن بافريقية وهو يريد استرجاع المهدية ، وذلك بغرض كسر شوكة الفرنجة في الجهة الغربية من بلاد المغرب ، وذلك بإنشاء مراكز تراقبهم وتمنعهم من التقدم والزحف نحو العدوة الدنيا ، وتعود هذه الأحداث إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فقد أمر عبد المؤمن ببناء جبل الفتح وتحصينه، فبني وشيد حصنه، وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الأول من هذه السنة ، وكمل بناءه في ذي القعدة منها[3].

---

[1] - الناصري ، نفسه.

[2] - جبل الفتح : ويقصد به حبل طارق، يقع في جنوت الأندلس، وقد سماه عبد المؤمن بجبل الفتح وكان من أهم الأعمال العسكرية له.حيث كان مقرا هاما له، فقد بنى فيه حصنا ومدينة، ونفذ البناء الحاج يعيش وأشرف على البناء أبو سعيد عثمان.

-ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، مصدر سابق ، ص282.

وينظر: حسين مؤنس، مصدر سابق ، ص97.

[3] - الناصري، مصدر سابق، ص 125.

وجاء في الحلل الموشية[1] أن عبد المؤمن أمر أبا سعيد عثمان بعد أن رصي قواعد الدولة بإفريقية ببناء حصن ومدينة على سفح جبل طارق الذي سمي بجبل الفتح، وكان الذي بناه هو المهندس الحاج يعيش، وكانت الغاية من ذلك تهدف إلى أن تكون هذه المنشآت قاعدة أمامية لفتوحات الأندلس.

وتجدر الإشارة إلى إن عبد المؤمن بعدما انتهى من تحرير جميع أراضي أفريقية وطرد الرومان منها، قام بتعيين ولاة ثقاة على مدنها[2]، لإدارتها والمحافظة على أمنها،ثم اعد الخليفة نفسه بخطة جديدة تختلف عن خططه الحربية السابقة، يريد بها استرجاع ما تبقى من مدن وجعل نهاية لكل المتمردين على سلطانه في الأراضي التي تملكها في حدود دولته الناشئة، حيث بات طموحه فتح بلاد الأندلس وخاصة بعد إتمام القاعدة الخلفية لعملية الفتح بجبل طارق.

وقد كان الموحدون أول من أدرك الأهمية الكبرى للجبل كموقع حربي هام، ولذلك نرى عبد المؤمن يصدر أوامره ببناء مدينة كبرى في الجبل بمجرد ما انتصر على خصومه في المهدية الشرقية واتجهت نيته نحو الأندلس. كان عبد المؤمن يعلم أن الفتح الأول للأندلس كان عن طريق هذا الجبل فلابد إذن لمن يريد الاطمئنان على وجوده في جنوب أوربا من أن يمسك "بالمفتاح" الذي كان يتجلى في هذه الصخرة الشماء"، وإذا كان طارق قد توج هامة الجبل بقلعة صغيرة فإنه لم يلبث أن صرف النظر عنها عندما استولى على منطقة الجزيرة[3].

---

[1] - مؤلف مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تونس،1129هـ، ص118.

[2] - وهؤلاء الولاة هم: الشيخ أبا محمد عبد الله على مدينة تونس، ومحمد بن فرج الكوسي والحسن بن علي الصنهاجي على مدينة المهدية، وولده أيا إسحاق إبراهيم على مدينة افريقية. ينظر الزركشي، مصدر سابق، ص50.

[3] - عبد الهادي التازي ،مقال نشر بتاريخ 19 جويلية 2015، **الموحدون وجبل طارق من خلال مخطوط قديم**،اطلع عليه يوم 06- 04- 2023 ،
https://www.minculture.gov.ma/?option=com_content&id=346:abdelhadi-tazi-almohades-jbraltar&Itemid=153

وكان الخليفة قد أرسل خلال حملته المذكورة في ربيع الأول سنة 555هـ كتابا إلى ولده السيد أبي سعيد والي غرناطة، وذلك بأن يقوم ببناء "مدينة كبرى" بجبل طارق، تكون منزلا للأمير عند إجازته العساكر، وكتب في نفس الوقت إلى ولده السيد ألي يعقوب والي أشبيلية، بأن يستنفر جميع العرفاء والفعلة من كل ضرب، ومن جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين لهذا الغرض، وندب لوضع خطط المدينة الجديدة، والإشراف على بناءها عدة من أكابر المهندسين[1] .

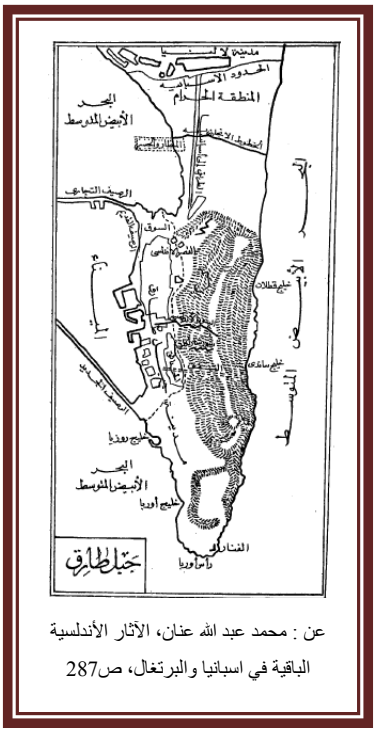

عن : محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص287

وهكذا حينما شرع ولديه بتنفيذ ما جاء في الرسالتين ، شهد الجبل لأول مرة اجتماعا تمهيديا ضم عددا مهما من المهندسين والعرفاء، بالإضافة إلى الطلبة والأجناد الذين وصلوا، وحضر جميع الذين تمس حاجة البناء إليهم: من البنائين، والجيارين، والنجارين إلى جانب القواد والكتاب وأهل الحساب الذين يشرفون على "تقييد الأشغال" والإنفاق على الأعمال[2].

وأشارت المصادر التاريخية[3] إلى تضافر جهود المهندسين المعماريين على عمران الجبل سواء منهم من ورد من المغرب أو الأندلس كالحاج يعيش المالقي، وأبي إسحاق بُراز بن محمد،وتولى العريف أحمد ابن باسة الإشبيلي النظر على أعمال البناء، واستنفروا جميع العملة من البنائين والنجارين والعرفاء والاختصاصيين في الغراسة. وهكذا أمسى الجبل بعد بضعة شهور فقط جنة فيحاء تشتمل على "جميع الفواكه"، من التين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج والموز وغير ذلك إلى ماء عذب زلال سلسال.

---

[1] - محمد عبد الله عنان، **الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال**، دراسة تاريخية أثرية، الطبعة 02، مكتبة الخانجي، القاهرة 1417هـ = 1997م ص 285.

[2] - التازي عبد الهادي ، مرجع سابق، نفسه

[3] - عبد الملك ابن صاحب الصلاة ، **المن بالإمامة- تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين**، تح. عبد الهادي التازي، طبعة 03، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان 1987 ، ص 51.

ومن أعمال التحصين والإعمار على جبل الفتح كقاعدة عسكرية خلفية لصد أعداء الكفار ، بناء مدينة رباط الفتح البحرية الحصينة لتكون قاعدة عسكرية كبرى تستقبل أرتل الجيش الوافدة من بلاد المغرب.

ونذكر من بين ما شيده البناءون على جبل الفتح في الموضع الذي وقع اختيار الجميع عليه تلك القصور المشيدة والديار ، وما أبدعوه من اختراع في أسسها من الطيقان والحنايا لتعتدل بها الأرض وبنيت من مواد الخام المتوفرة والملائمة وهي تتمثل في الحجر المنجور والجيار مما هو عجيب من الآثار[1].

وكان مما اتصل بعمارة الدور والقصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه فجاء فرداً في المعاقل التي لا يتمكن لطامع فيه طمع[2].

وهكذا استمر العمران على الجبل عدة شهورا بمهمة مضاعفة حتى تم بناء المدينة الجديدة في شهر ذي القعدة سنة 555هـ = ديسمبر 1160م، ومن مظاهر هذا العمران بالمدينة، بناء جامع وقصر للخليفة، ودور لأبنائه وحاشيته[3]. وغرست الحدائق على طولها حذاء البحر، وجلب إليها الماء العذب، وجدد الحصن والأسوار القديمة، وعني بتحصين الصخرة أكمل عناية، وسمي الجيل بأمر الخليفة، جبل الفتح أو مدينة الفتح

وبالإضافة إلى هذه البنايات عهد إلى الاختصاصيين في فن الغراسة بتشجير ضفة الجبل بمختلف أنواع الفواكه سواء منها فواكه الربيع والصيف والخريف والشتاء، وهكذا غرست أشجار

[1] - ابن صاحب الصلاة، مصدر سابق ،ص 86.

[2] - ابن صاحب الصلاة،مصدر سابق، ص 89.

[3] - محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص286.

التين، والعنب، والتفاح، والكمثري، والإجاص المعروف عند المغاربة بعين البقر، والسفرجل والمشمش، والأترج والموز[1].

وتوجهت العناية لاستخراج الماء من صخور الجبل، فنجح المهندسون في اكتشاف منابع جمع بعضها إلى بعض حتى تكون منها جدول عم المدينة كلها، وكان يصب في خزان يجري منه إلى الجنات المغروسة[2].

وما يلفت النظر ومن مظاهر التقدم الصناعي على عهد الموحدين مما كان مشاهدا في جبل طارق بصفة بليغة تجعل الناظر يحدق بدون ملل هو ، تلك الرحى التي صنعها الحاج يعيش في أعلى الجبل تسير بالهواء لطحن الأقوات، فأعطى بذلك مظهراً من مظاهر النهضة الميكانيكية[3].

فلقد استغل المهندس المغربي الحاج يعيش تيارات الريح المتضاربة على قمة الجبل، فاخترع في أعلى الجبل رحى تطحن الأقوات بالريح، وهذا المهندس هو الذي تنسب له مقصورة مراكش الشهيرة التي تحدثت عنها كتب التاريخ في إسهاب[4].

ونذكر من المظاهر أيضا بناء الأسوار التي تحيط بالمدينة، فلقد كان الموحدون حريصين في جل المدن الكبيرة التي عرفوها أو شيدوها على تحصينها، ففعلوا ذلك في الرباط وسلا ومدينة فاس وتازة. ولأجل هذا فقد أحاطوا مدينة جبل طارق بسور حصين ظل حتى أيام أبي الحسن المريني على ما يحكى

---

[1] - التازي عبد الهادي ، مرجع سابق، نفسه
https://www.minculture.gov.ma/?option=com_content&id=346:abdelhadi-tazi-almohades- jbraltar&Itemid=153

[2] - التازي عبد الهادي ، مرجع سابق، نفسه
https://www.minculture.gov.ma/?option=com_content&id=346:abdelhadi-tazi-almohades-jbraltar&Itemid=153

[3] - ابن صاحب الصلاة، مصدر سابق، ص 51..

[4] - التازي عبد الهادي ، مرجع سابق، نفسه
https://www.minculture.gov.ma/?option=com_content&id=346:abdelhadi-tazi-almohades-jbraltar&Itemid=153

ابن جزي، ولما كان الموحدون يهدفون بتأسيس مدينة الفتح إلى أن يجعلوها نقطة انطلاق نحو جنوب أوربا، فقد التقى طرفا السور على باب في "الفرجة التي يدخل فيها إلى الجبل سموها "باب الفتوح". ويظهر أن الخليفة الموحدي ابتهج أيما ابتهاج بالمدينة العظيمة، ولذلك نراه يخصص فيها استقبالا رائعا لأعيان الأندلس والمغرب، ويأذن للشعراء في الإنشاد، ثم يكافئ العمال والخبراء والمهندسين بالهبات السنية والعطايا الجزيلة. وقد تحدث التاريخ عن شكل مجسم "ماكيط " للجبل بما فيه من أسوار وأبراج وحصون وأبواب وصناعة ومساجد ومخازن وأهرية، أمر بصنع هذا الشكل أبو عنان العاهل المريني وكان موضوعا بالمشور السعيد. ومن المؤكد أن هذا "الماكث" يشتمل في معظمه على عدة مباني موحدية مما أنشئ سنة 555 لكنه ضاع في جملة ما ضاع أواخر عهد بني مرين[1].

ولما كمل بناء المدينة في شهر ذي القعدة سنة 555هـ، عبر ألبها الخليفة عبد المؤمن من ثغر سبتة ، وأقام بها إزاء شهرين يستقبل وفود الأعيان والعلماء والأكابر من أهل الأندلس، وأشياخ الموحدين من السادة والقادة والحفاظ والطلاب والجند[2]، وكان دخولهم إلى مجلسه العالي للسلام ولتجديد البيعة الكريمة وتقبيل اليد المباركة منه والاستسلام،فدخلوا على ترتيب وتأديب وسلموا سلام جماعة وتكلموا إقرارا بالطاعة ، ثم أذن للشعراء في الإنشاد بذلك المجلس العالي الشريف ، فأوردوا ما نظموه من فكرهم بمحضر الوارد الرواد واحتفال الوفود والإشهاد، ومن جملة الإنشاد ما انشده أبو بكر بن المنخل الشلبي مهنئا مادحا قائلا هذا مطلعهاً[3]:

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا فإن نسيم النصر بالفتح قد هبّا

اصرتم اليه الخيل وهي اجادل فسالت بكم بحرا وطارت بكم ركبا

[1] - التازي عبد الهادي ، مرجع سابق، نفسه
https://www.minculture.gov.ma/?option=com_content&id=346:abdelhadi-tazi-almohades-jbraltar&Itemid=153

[2] - محمد عبد الله عنان، مرجع سابق، ص286.

[3] - ابن صاحب الصلاة، مصدر سابق ،ص 95.

5. 2 مدينة البطحاء[1]:

كانت مدينة البطحاء تعرف في الجزائر باسم "السدرة " موقعها على نهر "شلف " بالشمال الشرقي من غليزان، وكان بناؤها في سنة 555هـ[2] .

ويذكر الحسن الوزان أن مدينة البطحاء كانت مبنية منذ أمد بعيد وآهلة بالسكان ، تعود إلى عام513هـ/ 1119م،حيث نزل بها محمد بن تومرت في طريق عودته من المشرق بمعية أتباعه ومنهم عبد المؤمن بن علي، وأقام ابن تومرت بها ثلاثة أيام ثم غادرها نحو مدينة فاس، وفي زمن عبد المؤمن وسعت مدينة البطحاء وعمرها عند عودته من فتح افريقية[3].

ويبدو من خلال ذلك أن مدينة البطحاء لم تبن لأغراض حربية كشأن مدينة الفتح، بل أقامها عبد المؤمن تكريماً لأحد الشيوخ من الموحدين والمؤمنين المخلصين لدينهم ولعبد المؤمن بن علي.

ولذلك فإن أسباب ودوافع بناءها ، تعود إلى الأحداث التي طرأت أثناء عودته من افريقية نحو المغرب يريد طنجة وقد أخذ من العرب الهلاليين ألفاً من كل قبيلة بعيالاتهم وابناءهم، ونقلهم إلى المغرب، وذلك لإضعاف شوكتهم في افريقية وللاستعانة بهم في حروبه ضد الفرنجة في بلاد الأندلس[4].

وكانت من بين هذه القبائل العربية فرع الهلالية الجشم[5] ، فجاء في البيان للمراكشي، أن بعض القبائل الهلالية، طلبت منه أثناء مروره بوهران أن يعدل عن السير ويعود بهم إلى أهلهم ، لكن

---

[1] - البطحاء هو المسيل الواسع فيه دقائق الحصى وجمعه البطاح والأباطح، وهو كل موضع متسع، والبطحاء أيضا مدينة بالمغرب قرب تلمسان، بينهما نحو ثلاثة أيام أو أربعة.
- ينظر: ياقوت الحموي، مصدر سابق ، ص 446.

[2] - عبد الله علي علام، **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**،دار المعارف بمصر،1971 ص 383.

[3] - الحسن الوزان، مصدر سابق،ج2،ص27.

[4] - محمود السيد،مرجع سابق،ص50.

[5] - جشم: بطن من البطون العربية يعرف بأبي جشم بن ناهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن سعد.

الخليفة تجاهل مطلبهم حتى لا تفسد خطته الحربية الجديدة، وأمام تجاهله مطلبهم امتعضوا منه غيظا ، ودبروا له مكيدة قتله والتخلص منه، لولا إنقاذه من صاحبه الشيخ أبي ابراهيم إسماعيل بن يحي بن سلالم الهزرجي[1].

ويروي لنا ابن أبي زرع في القرطاس هذه الأحداث قائلا :" وبني في رجعته هذه مدينة البطحاء وسبب بناءه إياها انه لما طالت بالموحدين الإقامة بالشرق والتغريب عن أوطانهم وأولادهم، عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خباءه إذا نام، وتوافقوا على ذلك، فأتى شيخ ، ممن علم الأمر ، إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر وقال له: دعني أبت الليلة في موضعك أنم في فراشك، فإن فعلوا ما اتفقوا عليه كنت فديتك بنفسي في حق المسلمين وأجري في ذلك على الله، وإن كانت السلامة فمن الله تعالى ويكون أجري على قدر نيتي، فبات على فراشه فاستشهد"[2].

ولو نظرنا بُعد العمل الذي قام به الشهيد ، فإننا نجد مثل هذا العمل الفدائي قلما يقوم به إنسانا من تلقاء نفسه، إلّا إذا كان من أهل الصلاح والفلاح والإخلاص من الذين يتشبعون من روح الإيمان والإسلام، وحينئذ نقول أن ما قام به الشهيد يعتبر من الأعمال التي تقام وتنسب إلى المتقين من الصالحين والأولياء.

وأمام هذا الموقف الشجاع الذي قام به الشهيد، جعل أمير المؤمنين يرفع من قيمة ومكانه صاحبه، فرفع شأنه إلى مصاف الشخصيات الفذة من المجاهدين الأوفياء، ونلحظ ذلك في الموكب الجنائزي الذي أمر بإقامته تكريما له،بعدما وجده مقتولا في اليوم الموالي، فقد أخذه وحمله بين يديه على ناقته لا يقودها أحد، فسارت الناقة تمر يمينا وشمالا حتى بركت وحدها،فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها واخذ بزمامها وأزيلت عن مبركها، وحفر قبره فيه ودفن وبنيت عليه قبة. وبني بإزاء القبة

- ينظر: عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، ج01، مؤسسة الرسالة ، ط08، 1987،ص 187 و 189.

[1] -المراكشي، البيان، مصدر سابق،ص196.

[2] - ابن ابي زرع، مصدر سابق ،ص262.

جامعا، ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد، وترك بالمدينة عشرة من كل قبيلة من قبائل المغرب، فقبْر الشيخ هناك معظّم عند أهل تلك البلاد يزار إلى اليوم[1].

ونشير إلى أن المنطقة خلال هذه الفترة تميزت بانتشار مزارات الأولياء والاعتقاد بهم، وقد ساعد ذلك وقوع المنطقة بذاتها في محيط هذه الظاهرة وفي مجال انتشار فكر هذا الاعتقاد، ولذلك فإننا لا نستبعد صحة رواية ابن ابي زرع في قصته للناقة التي وضع : عليها القتيل لتسير به إلى المكان الذي يروق للناقة أن تبرك فيه، ليدفن ويقام له المزار و من حوله يؤسس المسجد والمدينة كما أننا لا نجزم بذلك إذا ما اعتمدنا ما ذكره الحسن الوزان.

وهنا يجدر بنا القول بأن عمل عبد المؤمن بالبطحاء كان توسعة لها والقصة المروية قد صادفت مشاريعه في إنشاء المدن الجديدة وتعميرها من مختلف العشائر والقبائل المغربية.

وهذه الحادثة تذكرنا بليلة مبيت الإمام علي كرّم الله ووجهه في فراش النبي محمد (ص) بدلاً عنه، وفداء له ،وذلك حينما تآمرت قريش على التخلص منه ودعوته بقتله.فقد جاء في السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: [2] " لما كانت عتمة الليل اجتمع فتيان من قريش على بابه، وبيدهم السيوف المرهفة، ويتطاير من عيونهم شرر الغدر والمكيدة، فلما رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فإنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه ... وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينام في برده هذا إذا نام، فسمع عليّ لما أشار به رسول الله وأطاع طيّبة بذلك نفسه، وبذلك كان أول فدائي شاب في الإسلام، فقد وقى رسول الله بنفسه، وهو يعلم أنه على قيد أذرع من سيوف المشركين ورماحهم، وكان هذا التدبير المحكم الذي أشار به جبريل عليه السلام مما لبّس الأمر على المشركين المتربصين للنبي، فكانوا إذا نظروا من خلَل الباب وجدوا النائم فيظنون النبي، بينما هو الفتى الشجاع علي رضي الله عنه.

وتذكرنا هذه القصة أيضا بظاهرة التبرك والاعتقاد بالأضرحة التي انتشرت وعمت في شمال وجنوب بلاد المغرب الإسلامي ، ونأخذ صورة مما أشار إليه العياشي في رحلته واصفا ما شاهده من

[1] - علي ابن ابي زرع ، مصدر سابق ،ص 262.

[2] - محمد بن محمد ابي شهبة، **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة** ، ج01، ط02، دار القلم دمشق ، 1412هـ = 1992م ،ص 475.

هذه الظاهرة المنتشرة فقال[1]:"سمعت - سيدي الشيخ عبد الرحمن الأخضري- هو الذي أظهر القبر الذي في بلاد الزاب المنسوب لنبي الله خالد بن سنان عليه السلام، وهذا القبر الآن من المزارات الشهيرة في تلك البلاد تقصده الأركاب للزيارة من نواحي إفريقية كلها، واشتهر أمره عند الخاص والعام، والبدو والحضر، وعليه مسجد عظيم، وحوله مدرسة، والناس يؤثرون عن ذلك المشهد كرامات..."

ويبدو لنا من خلال ما جاء في النص وما أشارت إليه المصادر التاريخية من قصص ووقائع ، هي بمثابة أحد العوامل والأسباب التي تساهم في ازدهار العمارة والعمران ونشأة الحواضر والأمصار وبروز نمط وثقافة الاجتماع البشري، وتعد من خلال ذلك مدينة البطحاء واحدة من المدن التي كان ازدهارها بسبب الوقائع التي حدثت أثناء عودة عبد المؤمن بن علي من عملية فتح بلاد افريقية، وهنا يجدر بنا القول بأن عمل عبد المؤمن بالبطحاء كان توسعة لها ، والقصة المروية قد صادفت مشاريعه في إنشاء المدن الجديدة وتعميرها من مختلف العشائر والقبائل المغربية.

خاتمة:

نستخلص من خلال عرضنا لما سبق جملة النتائج الهامة التي كانت بمثابة الهدف الذي سعى إليه عبد المؤمن بن علي في تأسيس دولة الموحدين ونلخصها في ما يلي:

- يعتبر الاهتمام الذي أولاه عبد المؤمن بن علي بالجانب الفلاحي والاقتصادي وذلك من خلال القيام بعملية المسح وفرض الخراج هو نظرة استباقية في غاية الأهمية لما لذاك من دور في الأمن الغذائي والاقتصادي وما ينجر عنه في إعداد العدد والعدة من اجل نشأة الدولة وتقويتها وضمان استمرارها.

- و يستخلص من الفكرة المتعلقة بفتح المهدية على قوة الجيش الذي عرف اهتماما كبيرا منذ الوهلة الأولى في إنشاء الدولة ، وهي إشارة تدل على البعد الذي أولاه أمير المؤمنين في بناء الجيش المتعدد الأعراق والأصقاع، ليكون جيشا موحدا يدافع على الدولة في الداخل والخارج.

كما يتجلى من سياسة بناء المدن الجديدة ،أن العمل الذي أولاه أمير المؤمنين عبد المؤمن في الجانب الاجتماعي بداية من تأسيس المدينة وتحصينها إلى تعميرها بالسكان الجدد الذين يشكلون

[1]- عبد الله بن محمد العياشي، **الرحلة العياشية**، تح. سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج 02، ط01، دار السويدي للتشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة،2006 ، ص 542.

نسيجا من مختلف قبائل بلاد افريقية،هو بمثابة السياسة الحكيمة التي كان يريد بها تذويب النعرة القبلية والعرقية لإنشاء مجتمع موحد ومتماسك بواسطة الجوار والتصاهر والتعاون في ما بين الناس.

وعموما تتجلى لنا الأعمال التي قام بها عبد المؤمن بن علي بمثابة القائد صاحب الحكمة والبصيرة والدراية خلال هذه الفترة التاريخية في الجانب الجغرافي برسم حدود بلاد المغرب بعد عملية المسح واسترجاع المدن ، وفي الجانب الاقتصادي من خلال تحقيق الأمن الغذائي الذي حققه من نفس عملية مسح الأراضي الصالحة للزرع واستصلاح الأراضي وجلب أصحاب المهن والصنائع وابتكار الآلات وتوريد المياه وبناء وإصلاح الموانئ لازدهار التجارة ، وفي الجانب العسكري وذلك من خلال تأسيس جيش موحد وقوي بعدده وعدته استرجع المدن وطرد النصارى، إضافة إلى بناء المراكز الهجومية على غرار جبل الفتح ومدينته، وفي الجانب السياسي من خلال تنظيم الإدارة بتعيين أمراء له على المناطق المفتوحة وفي الجانب الديني من خلال وحدة المذهب وبناء الجوامع والمدارس وجلب العلماء لنشر الإسلام وحمل رايته.